سينما

سيمون الهبر يواصل الإبحار في ذاكرة الحرب الأهلية

بعد «سمعان بالضيعة»، يواصل السينمائي الشاب رحلته الوثائقية. في «الحوض الخامس»، يستند إلى تجربة عائلته مجدداً، باعتبارها صورةً مصغّرة عن أحوال المجتمع اللبناني خلال الحرب. هكذا، ينطلق من الخاصّ إلى العام، مع شهادات والده وأصدقائه الذين عملوا في المرفأ في ذلك الزمن الأسود

روي ديب

في فيلمه الأول «سمعان بالضيعة» (2009)، تناول سيمون الهبر (1975) أحداث تهجير المسيحيين من جبل لبنان خلال الحرب الأهلية (1975 ـ 1990). روى لنا قصّة عمّه سمعان الذي اختار العودة إلى الجبل كي يرعى البقر بعيداً عن المدينة. اليوم في شريطه الثاني «الحوض الخامس» الذي عرض أخيراً ضمن «مهرجان شاشات الواقع» في «متروبوليس أمبير صوفيل»، يسرد المخرج الشاب فصلاً آخر من فصول الحرب على لسان أبيه وأصدقائه من سائقي الشاحنات التي كانت تنقل البضائع من مرفأ بيروت. إنّها رحلة نجول فيها على شخصيات عايشت زمناً مضى مع انتهاء الحرب. لكن، هل نجح صاحبنا في تقديم شيء جديد عن ذلك «الزمن الأسود»؟ يتجسد الفيلم في ثلاث مساحات: الجبل، والمرفأ، ومساحة مستحضرة من الخيال والروايات. في اللقطات الأولى، تتقاطع الصورة بين آليات المرفأ، والطبيعة الجبلية، والشخصيات التي تشكّل نقطة التماس بين هاتين الجغرافيتين. زمانياً، يعود بنا الهبر إلى الستينيات، لتنتهي بنا الحال أوائل التسعينيات. مع ذلك، لا يستعين بمواد أرشيفية تساعده في إدخال المشاهد إلى أجواء الفيلم، فالأرشيف هنا ينبع من ذكريات الشخصيات.

ينطلق الوثائقي مع الأب نجم الهبر المتنقل منذ صغره بين بيروت والجبل. يخبرنا الرجل الكهل عن المرة الأولى التي قصد فيها بيروت بحثاً عن العمل وهرباً من الريف. يفشل هذا المخطط عندما يكتشف أبو نجم مكان عمل ابنه في مقهى «الجندول». سيعود نجم إلى القرية، ليعمل في الأرض وتربية الحيوانات. لكنّ وفاة الأب ستسمح للابن بالعودة إلى بيروت، لتبدأ رحلته مع شراء الشاحنات والعمل في المرفأ. بعد نجم، يتوالى ظهور السائقين الآخرين. يروي كل واحد قصة وصوله إلى المرفأ، وذكرياته في ذلك المكان. ينقسم زمن الشهادات التي تدلي بها الشخصيات إلى حقبتين. الأولى تتناول فترة ما قبل الحرب، حيث تعود أسطوانة ذلك الزمن الجميل إلى الدوران عبر يوميات هؤلاء الرجال. يخبرنا كل واحد عن فيلمه المفضل، لينفضوا الغبار عن «أبي فوق الشجرة» وأفلام بروس لي. يخبروننا أن ثلاثين سيخ شاورما كانت تباع كل يوم في ساحة البرج «التي ما كانت تنام». تتوالى الحكايات عن الزمن الجميل الذي انتهى مع بداية الحرب الأهلية. هكذا، ندخل الحقبة الثانية. نصغي إلى مغامرات السائقين في المرفأ الذي سيطرت عليه «القوات اللبنانية». لا بدّ لنا من الخروج بعبرة، حين يخبرنا هؤلاء كيف أبعدوا شبح الطائفية عن المرفأ رغم السعار الطائفي الذي أصاب المجتمع اللبناني. كان العمال المسلمون يساعدون أصدقاءهم المسيحيين في الهرب إلى بيروت الشرقية، بينما ساعدهم المسيحيون في النجاة من مجزرة «السبت الأسود». هكذا، نجول بين هاتين الحقبتين، إلى أن نقترب من المشهد الأخير. حركة انسحابية للكاميرا من المرفأ، مروراً بالجبل، وختاماً مع نجم الهبر الذي يخبرنا عن حلمه بالعودة إلى القرية لقضاء ما تبقّى من حياته. من المؤكد أن «الحوض الخامس» يقوم على جمالية عالية من حيث التأطير، وحركة الكاميرا، والألوان. لكن الهبر يتفلّت من نجاح فيلمه الأول الذي استطاع عبره أن يطلّ على لبنان بأسره. في هذا الشريط، يروي الهبر ذكريات سائقي الشاحنات في إطار تمجيدي، لتطغى النوستالجيا على كل ما يريد قوله.

> يقوم الشريط على جمالية عالية من حيث التأطير، وحركة الكاميرا، والألوان

تستعدّ «متروبوليس أمبير صوفيل» لطرح سبعة أفلام وثائقية في أيار (مايو) المقبل من بينها فيلم سيمون الهبر «الحوض الخامس» وشريط نديم مشلاوي «القطاع صفر»

نجم الهبر في مشهد من «الحوض الخامس»

يا زمان الطائفية

يندرج «حوض الخامس» ضمن الموجة المعاصرة التي عمت لبنان وشجعت الأعمال الوثائقية في بلد لا ذاكرة، ولا كتاب تاريخ له. هكذا، خُصّصت لها التمويلات المحلية والأجنبية والمهرجانات. وفي بداية التسعينيات، شاهدنا أعمالاً تحمل تلك النفحة النوستالجية والتمجيدية لحقبة الستينيات والحرب. ثم في أواخر التسعينيات، تبلورت أعمال في السينما، والعروض المسرحية، والفنون التشكيلية قطعت مع الماضي، وبدأت تبحث في حاضر مدينة جديدة بدأ يتشكل بعد الحرب. لكن أين سيمون الهبر من الواقع الجديد الذي حطّم توجّهاً كان غارقاً في نبش «زمن القتل على الهوية»؟

... ونديم مشلاوي في غيتو الكرنتينا

سمعنا موسيقى نديم مشلاوي (1980) في أفلام وثائقية لمحمد سويد، وفي «رصاصة طايشة» لجورج الهاشم. وها هو يقدم فيلمه الوثائقي الأول «القطاع صفر» الذي يصفه بأنه شريط استكشافي للزوايا المظلمة في ذاكرة لبنان الجماعية.

في هذا الشريط الذي شاهدناه ضمن «مهرجان شاشات الواقع»، يدخل مشلاوي بكاميرته إلى «الكرنتينا»، تلك المنطقة التي بني فيها مركز الحجر الصحي خلال العهد العثماني. ينطلق الوثائقي من مركز الحجر الصحي، إلى المسلخ، مروراً بغيتوهات الأقليات التي سكنت المنطقة، وصولاً إلى معمل الحديد والدباغة.

تأخذ الصورة حيزاً مهماً بوصفها أحد العناصر المكوّنة للفيلم في أسلبتها وتفاصيلها. رغم التنقل من مكان إلى آخر، إلا أنّ المخرج اختار البحث عن تفاصيل جمالية في تلك المساحات المهجورة، حتى في قبحها أحياناً، مما جعل من الشريط مادة تجريبية مثيرة للاهتمام، تعتمد على تركيز الكاميرا Focus وإبعادها، لتتكون لغة مشهدية خاصة بالفيلم، حاملةً توقيع المخرج، ومدير التصوير طلال خوري وتوليف نديم شرتوني. وقد ساعدت الموسيقى التي ألّفها مشلاوي على الارتقاء بالصورة إلى مصاف لوحة شاعرية قاتمة للتاريخ والذاكرة اللذين تحملهما. وتترافق الصورة مع مقابلات أجراها المخرج مع شخصيات عدة منها المعماري برنار خوري الذي تحدّث عن موقع الكرنتينا في المدينة، ونمو الأطراف وتطورها بموازاة وسط المدينة. كذلك يقدم قراءته الخاصة بمشروع «سوليدير». أما الكاتب حازم صاغية، فينطلق من تسمية «عرب المسلخ» التي أطلقت على البدو الذين سكنوا الكرنتينا وعملوا في المسلخ، ليغوص في مفهوم استبعاد الآخر في المجتمعات اللبنانية، والبنية الطائفية والمذهبية للبلد التي يقف عائقاً أمام قيام الدولة. ومع الفنان سيراغ ديرغوغاسيان، نعود إلى تاريخ وصول الأرمن الهاربين من المجزرة التركية إلى الحجر الصحي، ثم عملهم في المسلخ، إلى أن بدأوا بناء بيوتهم الصغيرة. تلاهم الفلسطينيون بعيد النكبة الذين انضموا إلى الأرمن والأكراد، إضافة إلى تجار من تركيا والعراق، والأردن... هكذا، شكّلوا نسيجاً فريداً من الأقليات. ونتابع الشهادات والمداخلات حول الحرب الأهلية التي مرت على الكرنتينا بين الكتائب اللبنانية والفلسطينيين والحركة الوطنية، وآثارها على المنطقة وأهلها.

> «القطاع صفر» يعود إلى الزوايا المظلمة في الذاكرة اللبنانية

أما الأكاديمي واختصاصي علم النفس العيادي شوقي عازوري الذي يتحدث طوال الفيلم، فيقودنا في رحلة تحليلية نفسية تنطلق من مفهوم المحرم و«التوتيم» في المجتمعات البدائية، إلى نزعة قتل الأب، واستبدال السلطات الذكورية... وصولاً إلى قراءة لواقع وتاريخ منطقة الكرنتينا ولبنان.

يبقى «القطاع صفر» غنياً بتفاصيله، لكن ما يضعفه تبنيه توجهاً أشبه بمحاضرة أكاديمية، مما أوقعه في رتابة تشوبها بعض لحظات المبالغة في التحليل. لكنّ الفيلم تجربة أولى جريئة خاضها مشلاوي مع حرص على التفاصيل، وبشاعرية تعد بالكثير.

روي...